إطلالة

عبء الرجل الأبيض

ذرائع لتحطيم نهضة الشعوب المُستعمَرة

ليست محاولات وأد التظاهرات الطلّابية في الغرب إلّا لأنّها أعادت إلى الواجهة تاريخاً استعمارياً شنيعاً من الإبادة أخذه الرَّجُل الأبيض على عاتقه

فوّاز حداد

سجّل العالَم، بعد الحرب العالمية الثانية إلى نهاية القرن الماضي، تحرُّرَ أكثر من ثمانين دولة مُستعمَرة من الاحتلال الأوروبي، كشف عن أنَّ بعض هذه الدول يعود احتلالُها إلى عشرات السنين، وبعضها الآخر إلى خمسة قرون. في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، قد يُقال لا يُوجد استعمار في العالَم. وبما أنَّ فلسطين في هذا العالَم، يُزعَم بأنَّها غير مُحتلّة، بعدما تغيّر اسمُها إلى «إسرائيل»، والعمل الدؤوب ينحو إلى طَرْد الفلسطينيّين، أهل البلاد الأصليّين، منها، وهي عملية مستمرّة لم تتوقّف منذ ثلاثة أرباع القرن، الحلقة التي ليست الأخيرة، نشهدها حالياً في الحرب على غزّة، وفي الأفق الضفّة الغربية. يجرى تنفيذ الفكرة الصهيونية، مع موافقة ضمنيّة غربية، مُشبَعة بالتطمينات؛ افعلوها ولن نُعارض، وربّما مع بعض الانتقادات من أجل العالَم الذي يرى ويسمع. والسبب ليس هُناك حلٌّ للقضيّة اليهودية غيره، ولو كان في خَلْق قضيّة فلسطينية، لذلك كان السعي لطمسها وإنكارها.

الكيان الإسرائيلي مشروعٌ غربيٌّ بالدرجة الأُولى، أُنجز بنجاح حتّى الآن، وإن ببُطء وليس بالسرعة التي استطاع الاستعمار من قبل اجتياح قارّات. يُشاع عن أنّ عصر الاستعمار ذهب إلى غير رجعة. بينما تُثبت الحرب الحاليّة، كما أثبتت الحروب السابقة بين «إسرائيل» والمقاومة الفلسطينية، أنَّ الغرب الاستعماري لا يقبل بانهيار مشروعه، ولا هزيمته أو وضع حدّ له، ويحثّ «إسرائيل» على القضاء على أيّة مقاومة، والأصحّ إبادتها، ولو احتاج إلى إبادة السكّان.

تبرهن عليها استحالة مضيّ «إسرائيل» في حربها من دون التأييد الأوروبي الهيستيري، مع حماية أميركية مُطلقة، تكفل لـ«إسرائيل» الأمن، مع ضمانة كاملة في التفوّق العسكري والتكنولوجي.

في الصدد نفسه، عن قصّة الاستعمار الذي خرج من البلدان التي احتُلّت إبّان الغزو الأوروبي لبلدان آسيا وأفريقيا، هذه البلاد باتت حرّة، لكنّه خرج ولم يخرج، خرج الاستعمار القديم، وعاد الاستعمار الجديد ليُقدّم الخبرات والمساعدات والمنافع التي تصبُّ بالنهاية في مصالحه الخاصة.

عناصر من شرطة تكساس الأميركية تُطوّق تظاهرة داعمة لقضيّة فلسطين، 29 نيسان/ إبريل 2024 (Getty)

فالبُنى التحتية التي يستفيدُ منها الأهالي تلزمها سكك حديدية وكهرباء ومصانع، وهو أمرٌ صحيح، لكن كي يسهل استغلال طاقات هذه البلدان، كونها مصدراً للموادّ الرخيصة، وأسواقاً لمنتجات ترتدّ على تنمية الاقتصاد الغربي.

أمّا كيف تسلّل الاستعمار بوجهه القبيح، ففي لجوء الدُّول الغربية إلى تشجيع الحركات الانفصالية، إن لم يكن بتشجيع الأنظمة الديكتاتورية، فصناعتها. كان الغرب وراء أكثر انقلابات آسيا وأفريقيا، وما زال حتى الآن كلّ ديكتاتور يسعى لوضع نفسه ونظامه تحت حماية أوروبا وأميركا، ويجهد في تقديم الخدمات لهما. بالمقابل لا يقصّرون أبداً في دعمه ضدَّ شعبه، والتغاضي عن جرائمه.

منذ وقتٍ مُبكِّر، حاول الغرب تبرير الاستعمار على أساس نَشْر الحضارة والتبشير بين الوثنيّين، وابتدع فكرة «عبء الرجل الأبيض»، ذريعة تُبرّر التدخّل في نهضة الشعوب المُستعمَرة، والإشراف على شؤونها كعمل حضاري خيري. ففي أفريقيا مثلاً، لم تذهب سوى نسبة لا تكاد تُذكَر من الأطفال إلى المدرسة، ولم يكن هناك اهتمامٌ بفتح مدارس ثانوية، حتّى إنّ جمهوريّة الكونغو الديمقراطية، التي كانت تحت الاحتلال البلجيكي، لم يكُن لديها عندما تحرّرت عام 1960 سوى ثلاثين خرّيجاً جامعياً، في بلد من 15 مليون نسمة.

> «افعلوها ولن نُعارض» لسان حال الغرب مع «إسرائيل»

> تُعيد الاحتجاجات الطلّابية فكرة العدالة إلى المركز

بينما كانت القارّة العجوز تُموِّل تعافيها من الخراب الذي حلَّ بها بعد الحرب العالمية الثانية بسواعد الفلّاحين وعمّال المناجم الآسيويّين والأفارقة، الذين عملوا على استخراج الذهب والقصدير والمنغنيز والكاكاو والمطّاط وغيرها، في ظلِّ أوضاع بائسة للعمّال لا تختلف عن العبودية.

هذا التاريخ الذي كان محلّ دراسة ترتفع اليوم أصواتٌ تطالب بإلغائه، في سلسلة من التعليقات وافتتاحيات الصحف الغربية، قُلّلت من أهمّيته، وانتقدت مقرّرات التعليم الجامعي التي تركّز على دراسات تصفية آثار الاستعمار، بأنّها كانت وراء انتفاضة الطّلاب، طوال الأشهر الماضية، وحملت الجامعات مسؤولية التظاهرات والاحتجاجات التي أدانت إرسال السلاح إلى «إسرائيل» وطالبت بوقف إطلاق النار.

انتقاد تدريس تصفية آثار الاستعمار كان لإنكار علاقتها بوجود الكيان الإسرائيلي، ولم تكن محاولات وأد التظاهرات بالقوّة، إلّا لأنّها أعادت إلى الواجهة التاريخ الاستعماري الشنيع للإبادة والاستغلال، وفضح العبء الشرير الذي أخذه على عاتقه الرجل الأبيض؛ قتَل ودمَّر واستعبد وخرَّب، واليوم أخذ على عاتقه بأسلحته وذخائره قَتْل الشعب الفلسطيني.

يُعيد الطلّاب فكرة العدالة إلى المركز، وغيابها عن القضيّة الفلسطينية، بجهود الغرب. ما يُؤكّد النظر في تقييم العبء الذي أخذه الرجل الأبيض على عاتقه، لم يكُن سوى تاريخ العنجهية الغربية والتفوُّق الكريه والنهب الذي استمرّ قروناً، كانت ظُلماً وظلاماً خَيَّما على آسيا وأفريقيا.

(روائي من سورية)

تصويب

إن طالت الحرب

باسم النبريص

إن طالت الحربُ، يتقدّم البشرُ في السنّ بسرعة كبيرة.
أرى صوراً لبناتي وحفيداتي ولا أُصدّق.
أرى أعزّاء كبروا عشرين سنة في أقلّ من مئتَي يوم.
من نجا، أُعطِب. كلّ شيء مضى.
وما كان، لن يعود للأبد.
مكر التاريخ الخبيث يُعاد تدويره، على مرأىً ومسمع.
حتى وباءات النكبة الأُولى تتكرّر بحذافيرها: شيوع القمل، ومرض اليرقان (الاصفرار)، وسوء التغذية، الذي يجعلك تقع فجأة وأنت صالب.
ما كنّا نعاني منه في خمسينيات وستّينيات القرن المنصرم (وما تزال آثارُه تصحب بعضَنا إلى اليوم)، هو هو نفسه، ولكن المكان والزمان تبدّلا: كنّا أيامها في مخيّمات الصفيح، بلا ماء ولا كهرباء، نحيا على كسرة الخبز وبعض الإدام من «الأونروا»، وهُم اليوم في خيام من نيلون وقماش مهمل، يعيشون على الحدّ الأدنى بالكاد.
كانت لنا بيوت بأربعة جدران، وهُم اليوم بلا بيوت ليعودوا إليها.
ثمّة سنوات قادمة، لا يعرف سوى الله عددها، تنتظرهم في خيام لا تقي من قَرّ أو قيظ.
خان يونس التي تَعدّ 700 ألف نسمة، لم يبق من منازلها سوى العُشر، حتى كتابة المقال.
طالت المحنة يا رب، وليس من مدد.
لا نريد لا أذرع مرفوعة ولا قبضات في الهواء.
نريد من دول الجوار سلاحاً ومقاتلين.
زمن التعاطف ولّى، وينبغي أن يحلّ محلّه زمن التكاتف.

(شاعر فلسطيني مُقيم في بلجيكا)

من أيّام فيتنام

تُعيد أميركا اليوم سيرتها على نحو مختلف، وذلك بالحرب على جامعات مرموقة مثل «هارفرد» و«برينستون» و«كولومبيا» (الصورة)، ما أعاد إلى ذاكرة العالَم أنه منذ الحرب على فيتنام، لم تشهد أميركا اشتباكات عنيفة بين الشرطة والطلّاب. تجلّت هذه المرّة بتقييد المظاهرات والاعتقال والطرد، بسبب نشاطات طالبت بوقف الحرب، تم الردّ عليها بشكل منهجي ومُتعمَّد تحت عنوان «مكافحة معاداة الساميّة» لإسكات أيّة انتقادات لـ«إسرائيل».

متابعة

عونة ضدّ التطبيع وتمويل المانحين المشروط

ضمن شروط الخدمة الاستعمارية

في خطوة من أجل الاستقلال عن منظومة التمويل الأجنبي، شهدت «مؤسسة القطّان» برام الله، إطلاق مبادرة «عونة» التي ضمّت منظمات ثقافية وأهلية

رام الله ـ العربي الجديد

مُتظاهِران في وقفة داعمة لفلسطين داخل حَرَم «كلّية دبلن الجامعية» 12 أيار/ مايو 2024 (Getty)

يبدو سؤال التمويل الاستعماري للأنشطة الثقافية مُلحّاً اليوم أكثر من أيّ وقت مضى، لا في فلسطين فحسب، بل على مستوى المنطقة العربية والعالَم المُتفاعل معها، فما معنى أن تُموِّل الدّول الغربية الإبادة بالسلاح وتُغطّي عليها بالسياسات الاستعمارية، ثم تهرع لغسل جرائمها بالمِنَح الصغيرة والتمويلات المُوجَّهة؟ كما فعل «معهد غوته» في القاهرة قبل أيّام، حيث أعلن بكلّ وقاحة عبر حسابه على فيسبوك، مِنحة بعنوان «ملتقى فنّاني/ات غزّة»، فقُوبل المنشور بموجة من الغضب والسخرية من المُتفاعِلين.

ضمن سياق المُواجهة مع هذه الوضعيّة المُتحكِّمة، وبهدف السعي نحو الاستقلال عن منظومة التمويل، التأمَت مطلع الشهر الجاري في «مؤسسة عبد المحسن القطّان الثقافية» برام الله، قرابة خمسين من المُنظّمات الثقافية والأهلية، بالإضافة إلى فاعلين وناشطين من المجتمع المدني الفلسطيني، ضمن مُبادرة حملت اسم «عونة». والتي تأتي، كما يوضّح بيانُها، ردّاً على «مواقف العديد من الجهات المانحة، التي أظهرت تواطؤاً في حرب الإبادة على قطاع غزّة، إذ جرّمت هذه الجهات مقاومة الاستعمار الصهيونيّ، وساوَت في مواقفها بين المستعمِر والمستعمَر، وقطعت التمويل أو هدّدت بقطعه، واتّخذت إجراءاتٍ مجحفة لفرض مواقفها».

وفي حين أعلن المشاركون في مُبادرة «عونة» رفضهم التمويلات التي تُعزّز التجزئة، أو ما كان مرهوناً منها بشروط سياسيّة أو إجرائيّة تتضارب مع النضال ضدّ الاستعمار مثل تجريم مؤسسات زميلة، والتصريح بنبذ المقاومة من خلال بنود تُسمّيها بـ«الإرهاب»، أو منع تبنّي نداءات مقاطعة «إسرائيل»، دعَوا في المُقابل إلى الترحيب بالدّعم التضامني الدولي، أكان ماليّاً أم غير ذلك، و«القائم على احترام كرامة شعبنا واستقلالية قراره، وحقّنا بوصفنا فاعلين في مجتمعنا بقراءة واقعنا مُقترناً بخطاب واستراتيجيات وأدوات عمل تنطلق منه».

> شدّدت المبادرة على مكافحة التطبيع ورفض التمويل المشروط

تبقى النقطة المركزية في بيان مُبادرة «عونة» هي تشديدُها على مسألة «مكافحة كلّ أشكال التطبيع، ورفض تلقّي التمويل المشروط سياسيّاً»، فالتطبيع بوصفه أيديولوجيا ومُمارسة هو ما تدور حوله غالبية المِنَح والإقامات الفنّية التي تُوفّرها المراكز الثقافية الأجنبية في العالَم العربي.

كذلك نصّ بيان المنظّمات المُؤتلفة في «عونة» على: «رفض تلقّي أيّ دعم من حكومات ومؤسسات أجنبية أو عربية أعلنت مواقف سياسية تُدين وتُجرِّم نضال شعبنا، خاصة بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023». كما دعت «عونة» إلى: «مُراجعة نقدية جريئة لسياسات التمويل الخاصة بالمؤسسات، واستراتيجيّات عملها، وتطويرها بما ينسجم مع رؤية الانفكاك عن منظومة التمويل الاستعماريّ».

وختَم بيان المُبادرة بالإشارة إلى ضرورة «توفير الدعم القانوني، والحملات المُشتركة لمواجهة الشروط التمويلية، عبر العمل لمراقبة المانحين ومساءلتهم، ورفض أيّة إجراءات رقابية بهدف الفحص والتدقيق، خاصة تلك المُستحدثة بعد 7 أكتوبر، التي تحمل طابعاً أمنيّاً وسياسيّاً».

ندوة

أن تطوف ستّين بلداً و تبقى وجهتك البوسنة

الحكاية كما يرويها أسعد طه

«نحن نقع في حبّ الأماكن كما الأشخاص تماماً»، هكذا لخّص الصحافي المصري علاقته بالبوسنة وتغطية الحروب والرحلات، في ندوة عُقدت بإسطنبول

إسطنبول ـ العربي الجديد

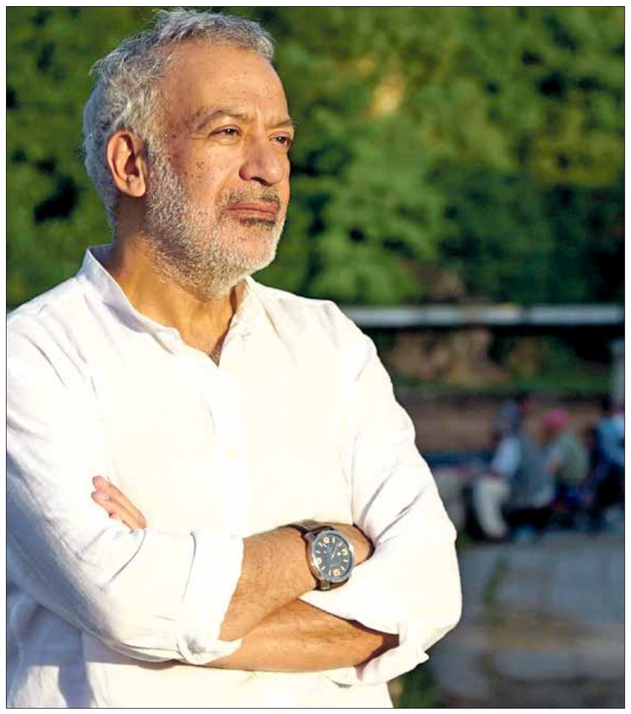

«الحبّ والحرب والحكاية» عنوان الندوة التي نظّمها «منتدى حرمون الثقافي» في إسطنبول مساء السبت الماضي، حيث استضافت فيها الإعلامية ومديرة المنتدى أسماء صائب أفندي، الصحافيَّ وصانع الأفلام الوثائقية المصري أسعد طه (1956)، الذي تحدّث مازجاً مجموعة من القِصَص والحكايا الإنسانية التي استوقفته خلال مسيرة أكثر من أربعة عقود في العمل على تغطية الحروب واستكشاف عادات وطبائع الشعوب.

بدأ طه حديثه باستذكار لقائه عام 2007 بالشاعر والقسّ والنحّات النيكاراغوي الراحل إرنيستو كاردينال (1925 - 2020)، الذي عاش حياةً ثوريّة وانضمّ إلى الجبهة السندينية التي قادت الثورة في البلاد عام 1979. لكن أمام كل هذا التاريخ الذي يستند إليه الرجل، آثَر طه، كما أوضح في الندوة، أن يسأله عن قصّة حُبِّه الأول التي وقعت قبل ستّين عاماً من تاريخ اللقاء وكتب فيها القصائد، دوناً عن غيرها من الوقائع الأُخرى التي كان شاهداً عليها، وفوجئ بـ«أنّ إجابة كاردينال جاءت حاضرة على الفور، وكأنّ الحدث الذي يستحضره قد وقع قريباً ولم تمرّ عليه السُّنون».

مثالٌ ثانٍ طرحَهُ طه في حديثه حول جدليّة الحُبّ والحرب؛ مفادُه أنّ ثلاثين امرأة بوسنيّة تمّ نقلُهنَّ عبر حافلة إلى مقبرة جماعيّة، إبّان الإبادة الصربية في التسعينيات، للتعرُّف إلى رُفات أزواجهنَّ وأبنائهنَّ. وأنّه على مدى ساعات ظلّ محشوراً معهنّ في هذه الحافلة، وحين وصلنَ، راح يُراقبهنّ وهنّ يُنقِّبنَ عن أثر ولو صغيراً يتعلّق بأحبابهنَّ «كانت حالُ من تجسد قطعة قماش صغيرة أو ما شابه أفضل ممّن لا تجدُ شيئاً». من هنا، وفقاً لطه، «تنبع قوّة الحكاية في التوثيق للحدث بصورة غير مباشرة مهما طال الزمن. في حين تبقى الخُلاصة من كلّ هذه الرحلات أنّ أحلى ما في الحياة هو الحبّ، وأسوأ ما فيها هي الحرب. دون أن ننسى الحالة المُفارِقة التي يخلقها الحبّ والحرب، بمعنى أن حاجة الناس إلى الأول تزداد في أشدّ ظروف الثانية قسوة».

ونبّه صاحب «يُحكى أنّ» (برنامج من إنتاج «الجزيرة») إلى أنّه يجب علينا اليوم، في ظلّ العُدوان الإبادي على غزّة، «أن نهتمّ بالتوثيق، لأنه يخلق مرجعيّة في المستقبل». لافتاً إلى مدى التأثير الذي خلقته الأفلام والسينما التي تناولت المحرقة عبر عقود. كما بيّن في حديثه إلى الفرق بين الخبر الصحافي والحكاية الإنسانية، فصحيح «أنّ الناس هُم الناس بغضّ النظر عن المكان الموجودين فيه، لكنّه لا يُمكن للأخبار أن تصل من غير حكاية، فالأخيرة أبعد بكثير من الطابع اليوميّ للخبر».

وعن رحلته إلى البوسنة واستقراره فيها إلى اليوم، تحدّث الصحافي المصري أنه ذهب إليها في مطلع التسعينيات أي قبل أن تقع الحرب، وهناك وقَع بحُبّ هذا البلد «نحن نقع في حبّ الأماكن كما الأشخاص تماماً». ورغم تنقُّله في أكثر من 60 بلداً بعدها، إلّا أنّ مفهوم الحكاية عنده ظلّ مُرتبطاً بالعَيش في البوسنة. وبالعودة إلى الراهن وسؤال الحبّ في زمن وسائل التواصل الاجتماعي، أجاب: «خلقت هذه الوسائل تواصلاً مباشراً مع الناس، أصبحنا أمام جوّ جديد بدون مقدّمات، لكنّ هذا التطوّر حصل في ظرف سياسي صعب بالنسبة للشباب العربي، حيث يحتاجون فيه بالفعل إلى نوع من التواصل الأعمق».

وختَم: «لا يُمكن للمهنيّ أن يقتصر دوره على هذا الجانب فقط، إذ غالباً ما يكون هناك دور إنسانيّ لأيّة مهنة. وهذا ما نُلاحظه اليوم مع صحافيِّي غزّة، الذين نراهم يتمتّعون برباطة جأش عزّ نظيرُها، مع ذلك يبقى القلق والتعب الحقيقي قائمَين في المستقبل ومن اضطرابات ما بعد الصدمة اللّاحقة التي تنجم عمّا تعرّضوا إليه من هول الإبادة».

> لا بدّ للصحافة من قيمة إنسانية وهذا ما يمثّله إعلاميّو غزّة اليوم

أسعد طه

فعاليات

عند الحادية عشرة من صباح السبت المقبل، تُنظّم «دار الآداب» في مكتبة «أكاديمية دار الثقافة» ببيروت، حواراً مع الشاعر **محمد ناصر الدين** حول رواية **قناع بلون السماء** للأسير الفلسطيني **باسم خندقجي** (الصورة). تُدير الحوار تغريد عبد العال، ويتناول قدرة أدب الأسرى على تمثيل السردية الفلسطينيّة.

بين 20 و23 من الشهر الجاري، تعقد **مؤسسة الدراسات الفلسطينية** في بيروت وبيرزيت ونيويورك وافتراضيّاً، مؤتمرها السنوي بعنوان **75 عاماً من النكبة المُستمرّة: الإنتاجات المعرفية**، بمشاركة عدد من الأكاديميّين والمؤرّخين من فلسطين والعالَم. يهدف المؤتمر إلى مراجعة الإنتاج المعرفي والعِلمي عن النكبة، والذي نُشر بلغات عدّة، و تناولها من جوانب مختلفة.

إشبيلية لا تُريد أسلحة عنوان الوقفة التضامنية التي تُنظّمها في المدينة الإسبانية منصّة **مجموعة السلام**، عند الواحدة والنصف من بعد ظُهر اليوم الثلاثاء. تتضمّن الوقفة قراءة بيان يُدين الإبادة في غزّة، ويُطالب الحكومة الإسبانية بوقف العلاقات الدبلوماسية مع الاحتلال ووقف صفقات التسليح.

تجارب في إدارة التراث الثقافي وتثمينه في البلدان العربية، عنوان ندوة علمية يحتضنها **موقع أوذنة الأثري** بتونس العاصمة عند التاسعة والنصف من صباح اليوم، وفيها يناقش مختصّون من تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ومصر وسورية والأردن النظم القانونية والمؤسّساتية المتعلقة بالتراث الثقافي في بلدانهم.